نوع التدخل الخارجي في سورية وتبعات ذلك

بقلم د. مازن هاشم

ظهرت لافتات تطالب بالحماية أو التدخل الخارجي بحظر الطيران أو بغيره... ولأهمية هذا الأمر وخطورته لا بد من مناقشته بنوع من التفصيل.

والمنطق الذي يستند إليه هذا الطلب هو أنه لا أمل في توقف القتل، والحراك قد بذل غاية الجهـــد و لم يعـــد في الحيلة المزيد من الوسائل التي تسقط النظام. وساهم في هذا الشعور آمال في أن يأتي العيد بأنباء سعيدة. غير إن تعلّق الآمال بتاريخ معيّن لا يستند إلى معطيات موضوعية، وطلب التدخل الخارجي يمكن أن يؤوله النظام على أن ضعفاً قد أجهز على همّة الثورة. والواقع أن شهر رمضان لم يكن عادياً أبداً، و لم يكن مجرد استمرار لمسلسل القمع والقتـــل، فردّ فعل النظام وانتهاكه للحرمات قطع الحجة على من يدعي الحياد وأحرج الصديق وأقنع العالم باستحالة الاصلاح الذاتي.

وربما لا نجحف القول إذا اعتبرنا أن في تمنّي التدخل إشارة لخيبة أمل من الحراك الخـــارجي الـــذي لم يـــستطع تشكيل هيئة سياسية أو مجلس وطني. وبرغم شعورنا جميعاً بتأخر تشكيل هيئة سياســـية، إلا أن تأخرهـــا مفهـــوم، ومخاض الإخراج مخاض صعب باعتبار تفرق الوجهات واختلاف الإيديولوجيات. وأرجو أن لا أنتهي من كتابة هذا المقال إلا والمجلس رهن التشكيل قد اكتمل بناؤه.

ولا نستطيع الجزم بأن طلب التدخل الخارجي هو رغبة كل أجزاء الحراك الداخلي، فالنسب التي تحبذ التـــدخل العسكري بحسب مواقع الانترنت تراوحت بين 30% على موقع و 60% على آخر و90% على موقـــع ثالـــث. وبغياب العلنية وحرية التحرك لا يمكن –من ناحية علمية بحتة– الركون إلى هذه النتائج ولا يمكن اعتبـــار الـــشريحة المشاركة في الاستبيان هي فعلاً ممثلة للحراك بمجمله.

عبارات الحماية أو التدخل الخارجي أو الـــ S.O.S. عبارات عامة لا تحدّد شكل المساعدة ولا حـــدودها أو مداها. فلنقلّب الفكر في أنواع متعددة من التدخل وما الذي يستدعيه كل نوع وما الذي يرافقه بالغالب.

ولنقل ابتداء إن الدول المهيمنة على النظام العالمي قد تدخلت فعلاً في الأمر السوري، وقد أُرغمت على ذلـــك و لم تفعله تطوعاً وأريحية. والذي أرغمها هو الحراك الداخلي والسلوك الثوري المتزن. فالسلمية الهادئـــة للحـــراك، ونضوجه الرافض للطائفية، وشعاراته وبياناته التي حدَّدت أهدافاً وأجندات واقعية، وتقبّل الحراك المـــسؤولية الذاتيـــة وعدم إيقاع اللوم على الآخرين، إلى جانب جهود المعارضة في الخارج، هو الـــذي اضـــطر القـــوى الخارجيـــة إلى الاستجابة، فأتى الدعم على المستوى الديبلوماسي والسياسي ومحاولة الضغط الاقتـــصادي. وبـــرغم أنّ التـــردد في

عبارات الدعم وعدم الجزم فيها لا يشفي غليل الداخل الجريح، إلا أن تدرج تـــصعيدها يتناســـب مـــع الأصـــول الديبلوماسية، والأهم من ذلك، يتناسب مع التطور في تقييم هذه الدول لمصالحها. فصحيح أن رؤية فظائع التنكيـــل تهز كل ضمير إنساني، بما فيه جماعات حقوق الإنسان، إلا أن السياسة الخارجية لا تعبأ كثيراً بهذه المـــشاعر، إلا مـــا كان من عبارات شجب وإبداء للقلق. السياسة الخارجية لا تزيح أعينها عن الأهداف الاستراتيجية الكـــبرى. ولا يخامر الشك إداراتِ هذه الدول أن الشباب الذي يشكل العمود الفقري للثورة هو الذي ســـورية المـــستقبل الـــذي ستتعامل معها، وحيث أن جيل الحاضر والمستقبل وضع نفسه على خارطة الأحداث، فلا يمكن التنكب لمطالبه تنكباً يُفهم أنه عداء، ولا سيما أنه اتسمت مواقف الحراك الثوري بالمعقولية والاتزان اللذين يفرضان الاحترام.

ولا شك أنّ قصة ليبيا كان لها أثر كبير على مشاعر الناس والتفكير بطلب المساعدة الخارجية. فقبـــل الحـــسم تشاءم الناس زيادة عن اللزوم، وبعد سقوط طرابلس صار هناك تقويم لأثر التدخل العسكري حالم أكثر من اللـــزوم، فلسنا متأكدين بعدُ من النتائج على المدى المتوسط والبعيد. وسوف أعود إلى ذكر الحالة الليبية لأنها تمتلك المخيلـــة وتوجه التفكير.

فما الذي نقصده بالتدخل الخارجي والحماية؟ كثير من التعليقات تتخيل ضربات جوية. ولكن ما أن يتخـــذ قرار التدخل حتى تزرع الدبابات والآليات العسكرية في رحم المناطق السكنية. ومهما كانت دقة القصف، المدنيون سوف يدفعون ثمناً غير قليل. واستراتيجية الحرب الجوية تقوم عادة بقصف المنشآت الحيوية تحت فكرة تقطيع أوصال النظام وحرمانه من مصانعه وجسوره، فهل هذا مبرر ومقبول لدى من يقول بالتدخل؟ وعدد سكان ليبيـــا صـــغير، وفي البلد نفط يمكن استخدامه لبناء المستقبل برغم استئثار الشركات التي قامت دولها بالمجهود الحربي، أمـــا المـــوارد القليلة لسورية وما بقي من نفطها لا يكفي لمهمة البناء بعد التخريب. وعبّر عن هذه المفارقة الاقتصادية صديق ليبي قائلاً: يستطيع الليبيون تحقيق الاكتفاء الذاتي بالاصطفاف على ساحل طويل بيد كل منهم سنارة صيد. وبفـــرض وجود الموارد، هذا لا يضمن إمكانية إعادة البناء، فنفط العراق اليوم يعجز عن تحقيق ذلك.

إن طلب توجيهات الضربات الجوية هو في الوقت نفسه طلب لتحويل الثورة من مسارها الـــسلمي إلى مـــسار مسلح. فهل هذا مقبول بين كل أجنحة المقاومة الشعبية اليوم؟ وكما هو مشهود، والذي فاجأ المـــراقبين وفاجـــأ النظام أيضاً، سعة الشرائح التي اصطفت مع الثورة وقدمت شيئاً من الخدمة، وكانت من قبل راضية بالمقسوم علـــى كره. وكثير من هذه القوى سوف يُحال بينها وبين النضال السلمي؛ فما الذي يمكـــن أن يقدمـــه شخـــصيات في الثمانينيات من عمرها لثورة مسلحة؟

ثم إنه من المسلّم به أن القوة الجوية بنفسها –مهما بلغت– لا تستطيع تغيير نظام سياسي، وتفتقر إلى مقاومـــة على الأرض تحمل السلاح. ولكن التسليح ليس بالهين. كيف توصل السلاح إلى المدن المحاصرة من شمال البلاد إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها؟ ويتضح هذا الأمر حين نتذكر أن التسليح المطلوب لا يقتـــصر علـــى الرشاشـــات الخفيفة، كما أظهرت التجربة الليبية. والتسليح المتناثر على مجموعة هنا وأخرى هناك يساهم في حـــصد الأوراح لا حمايتها.

وهب أن تسليحاً وافياً قد جرى، فكيف يمكن تزويد المقاتلين بالذخيرة والامدادات؟ فميزة المقاومة السلمية أن مدادها هو اقتيات الجسم وخط القلم وصدح الحنجرة وذكاء الدماغ، ولا يمكن السيطرة الكاملة على أي منها. أما السلاح فهو قطعة ميتة تحتاج الإمداد المستمر، وكلفته تنافس الصرف على ضروريات الحياة في وقت شح وحاجـــة. وللعلم، تقرير البنتاغون منذ بضعة أيام أشار إلى أن إيصال ليتر واحد من الوقود إلى القوات الأمريكية في أفغانـــستان يكلّف 12 دولاراً.

وإذا انقدحت المعركة عسكرياً، وجد الثوار أنفسهم في مواجهة مواطنين قلوبهم مع الثورة ولكـــن ظـــرفهم لم يسمح لهم بالظهور. وتحديداً، نستطيع الجزم بأن أغلب عناصر الجيش لا توافق على قتل المواطنين العـــزل. ونظـــراً للصعوبة العملية لانشقاق أعضاء الجيش وسلامتهم بعد ذلك، سوف توجه المقاومة سلاحها ضد أشقاء مـــن أبنـــاء الوطن، لهم أهل وأبناء وأزواج يتعاطفون معهم. وكما هو معروف ومقرر، استخدام السلاح يكون لـــه أهـــداف واضحة عند مواجهة عدو خارجي، أما في النزاع الداخلي وفي غياب تمايز الصفوف، يمكـــن أن ينقلـــب اســـتعمال السلاح لعنة على الجميع.

ومن المعروف أن الحراك ليس منظماً على نحو هرمي محكم، وهذا من مكامن قوته ويناسب تكتيكاته الـــسلمية. غير أن المقاومة المسلحة تفتقر إلى تنظيم محكم وضبط فائق، وإلا كانت قوتها عرضة للانفجار الذاتي من غير اتجـــاه، ولظهرت فرصة تشكل ميليشيات مسلحة وفق ولاءات محلية.

وحين تنقلب المقاومة إلى مقاومة مسلحة، تكتمل قناعات فئاتٍ موالية للنظام بضرورة زيادة تسلحها للدفاع عن أنفسها. كما يقوم النظام أو أي طرف له مصلحة في وضع قدم في سورية بشراء ذمم فصائل نفعية مدسوسة علـــى المقاومة تعمل لحساب أغدق عرضٍ موجود. ولنتذكر أنه عندما تكون المقاومة مسلحة فهذا يعني أن السلاح سيصبح في أيدي الصادقين المخلصين وفي أيدي الانتهازيين الفاسدين أيضاً. والمقاومة السلمية تقطع الطريق على الفاســـدين لأن تحركاتها ظاهرة بذاتها يصعب استغلالها أو التحايل عليها. فمثلاً كل الذي يستطيع أن يفعله فاسد ماكر في سياق المقاومة السلمية هو رفع يافطة ذات عبارة مشكلة؛ وسرعان ما يمكن استدراك الأمر. أما مـــع وجـــود الـــسلاح، فيستطيع الفاسد أن يطلق النار بآن معاً على الفريقين المتنافسين، فيحسب كل منهما أن الآخر غدر به. ولنتذكر أن معتوهاً نفسياً واحداً يستطيع إشعال النار على غفلة في غابة كاملة وفي حي كامل تأكله النار. وإذا كانـــت الحالـــة السورية معقدة جداً –كما هو مقرّر– فإن التسلح قد يؤدي إلى تطويل النزاع بعد دخول مصالح تجار السلاح الذين يزودون كل الفرق المتقاتلة؛ والنزاع في العراق وأفغانستان وعدد من دول في أمريكة اللاتينية شاهد على ذلك.

وإذا انقلبت المقاومة السلمية إلى مقاومة مسلحة، كيف يمكن ضمان عدم انفلات الأضغان من معاقل الرشـــد ومهاجمة قرى الطائفة العلوية مثلاً؟ المعارضة إلى اليوم غير طائفية لا في أهدافها ولا في تكتيكاتها، بل هي على عكس ذلك. ولكن هذا لا يعني أنه ليس هناك احتقان طائفي، وإنما الاحتقان الطائفي (المفهوم والذي يمكن تفسيره) يحتويه التعقّل وتمتصه سلمية التحرك. وصحيح أن الشروط الموضوعية لحرب أهلية غير متوافرة في سورية، غير إنه يمكن أن

تنقدح عمليات ثأر ترفع شعارات طائفية تقوم بها مجموعات مجهولة نيابة عن الشعب المسكين. وما الذي يضمن عدم الظهور المفاجئ لفتاوى بائدة تفسر المشكلة السورية بالأبعاد الاعتقادية، بدل التركيز على الواقع الموضوعي والأبعاد السياسية التي تمكِّن الاستبداد وتعطيه القوة باستناداته المتعددة غير المحصورة في مذهبية؟ وكيف نضمن عدم الظهور المفاجئ لـــ (السلفية الجهادية)؟ وقد يقال إنها لا توجد في سورية؛ وهكذا قيل في العراق، فلم تكن توجد من قبل الحاجة إلى توظيفها. المسيحيون يحبون وضعاً سياسياً فيه حرية، ولكنهم يتوجسون من نتائج الثورة على الرغم من سلميتها، فكيف إذا أصبحت مسلحة؟ الأقليات التي بطبعها تختار الاحتياط والحذر سوف يتغير موقفها إذا استُعمل السلاح.

وأذكر أني كنت في نقاش مع طالب شيعي إيراني عاقل، ونبّه إلى أن أي اعتداء على مقام السيدة زينب في دمشق سوف يجلب قوات حزب الله لحماية المقدسات. ولنسأل أنفسنا هل من الوارد أن يقوم النظام بهذا إذا شعر نفسه محصوراً، أو هل من الوارد أن تتبرع بالقيام بمثل هذه الأعمال دولةٌ مجاورة تعادي المشروع العربي برمته.

ومن قال إن حلف الناتو قادر على حسم الموقف في سورية؟ ولتنذكر أن روبرت غيتس وزير الدفاع الأمريكي السابق قال في كلمة تنحيه عن منصبه أن حلف الناتو فقير التسليح وأن أعضاء من الحلف يتمتعون بمزايا عضويته ولا يشاركون كفاية في نفقاته وأنه صعب عليهم الاجتماع على قرار واحد. وعرج غيتس على الحالة الليبية والبطء في القدرة على الحسم برغم أنه بلد سيء التسليح وليس مكتظاً بالسكان. ومن ناحية عملية، طلب التدخل في سورية هو طلب لتدخل الولايات المتحدة وإمكانياتها الحربية، فهل هذا مقبول لدى الثورة؟ وهل الولايات المتحدة التي تعاني مشاكل مالية حادة راغبة في هذا التدخل، وما هو الثمن الذي يترتب على هذا؟

وإذا دخلت قوات الولايات المتحدة حلبة الصراع، فهل سيجعل من رموز النظام أبطالاً قوميين؟ ألم يُقال ذلك في طاغية العراق؟ وكثير من التعليقات تشير إلى تركيا لتقوم بقيادة الجهد الحربي. ولكن تدخلها العسكري سيراه البعض غزواً عثمانياً غير مرغوب به. وهل تركيا أصلاً مستعدة للقيام بهذه المهمة واحتمال التفريط بانجازاتها الاقتصادية وإهدار المال في مغامرة حرب ليست مضمونة النتائج؟ وهل تركيا التي طامنت من نفوذ العسكر في السياسية مستعدة لإعادة إدخالهم فيها من خلال انتصار بطولي؟ وهل تركيا صديق ساذج يهشّ لمغامرة عسكرية من غير حساب دقيق للموازنات السياسية في نظامه البرلماني الذي يمكن أن تنقلب فيه بسهولة معادلة الفوز بالانتخاب.

وإذا كانت الاستعانة مطلوبة، فلماذا هي الحرب العسكرية قطعاً؟ هل التشويش الكامل على منافذ الإعلام يغني عن الحرب أو يخفف من الحاجة إليها؟ ويجري التساؤل فيما إذا كان انقاذ الحالة الليبية ممكنا بوسائل أقل خشونة. فلو شوش الناتو على التلفزيون والإذاعة الليبية الرسمية وجعل البث غير ممكن لمدة أسبوع أو اثنين، لكان عاملاً مزعزعاً لنظام القذافي إلى درجة كبيرة جداً. ولو سعى إلى التشويش المكثف على اتصالات النظام الليبي مع الكتائب المتناثرة في صحارى واسعة لكان له أثر عظيم. ولنتذكر كيف كان الثوار الليبيون في أول الأمر يتقدمون ولا يعرفون بوجود كتائب القذافي إلا عندما يلتظون بنارها؛ أي أنهم كانوا يفتقدون أبسط أدوات الاستطلاع؛ فهل كان

بالإمكان شراء معلومات أساسية من الشركات الخاصة للاستطلاع مقابل أسعار سخية؟ وأشير هنا إلى أن المزارعين الأمريكيين يطالبون بطرح طائرات الاستطلاع الشخصية في السوق التجارية لاستعمالها في مراقبة حقولهم الكـــبيرة. وما زالت هذه الطائرات في حوزة الجيش، وهي صغيرة وخفيفة يبعثها الجندي خلف الجدار أو التلة الصغيرة فتـــصور الموجود تصويراً لحظياً يعرض على شاشة صغيرة بيد الجندي ثم ترجع الطائرة إليه. ولست بخبير عـــسكري، ولكـــن أخبار هذا النوع من الأدوات المساعدة في القتال هي من جملة المعلومات العامة التي كانـــت تنـــاقش في الراديـــو في أمريكة. وأحسب أني لا أقع في فخ التفسير التآمري إذا قلت إن الوسائل التي استُعملت في ليبيا كانت أكثر ما يمهِّد لتبعيتها فيما بعد.

وإلى الذين يصرون على استعمال العتاد الحربي، فما هي أنواع هذا السلاح؟ ولتنذكر أن الـــسلاح المحمـــول شخصياً الـــ(بيترويت) أثبت جدواه في أفغانستان وأفقد الطائرات السوفيتية قدرتها وفاعليتها. والتزويد بمثـــل هـــذا السلاح يعتبر مساعدة فائقة، ولكنه دون التدخل المباشر ويمكن أن يوصف بأنه صفقة سلاح مشكورة اشتراه الشعب بماله واستعمله بكدّه، وليس فيه منّة دعوى التحرير من قبل قوات أجنبية.

يدرك الجميع أن التغيير في سورية هو أصعب بكثير من تغيير الأنظمة في تونس وليبيا ومصر، فالثورة الـــسورية تحمل على كاهلها تغيير توازنات إقليمية تمتد على كل اتجاهات الدول المحيطة بها، بالإضافة إلى إيران. وليس مبالغـــة القول إن تغييراً جذرياً في سورية يعني تغييراً سياسياً في كل هذه الدول المجاورة، وستصل ردّات زلزاله إلى إيران على نحو قوي. وربما يمكن أن نفهم التحول الجزئي في الموقف الإيراني من هذه الزاوية، وهو تحول مفاجئ لم يكن متوقعاً. وبشكل عام، لم ما تكن الإنجازات السياسية على المستويين الإقليمي والعالمي ممكنة لولا تضحيات الباســـلة للثـــورة ومواقفها المتزنة وسلميتها الواثقة.

ولا بد عند هذه النقطة من التنبيه إلى أن سلمية الثورة لا يعني الاستسلام السلبي، ومواقع الثورة تـــذكِّر بهـــذا، وأحدث النشرات الواضحة هي "دليل المقاومة المدنية". أي أن سلمية الثورة لا تعني الذلّ والاستسلام المهـــين، ولا يخامر أحد شك في أن أرومة الثورة هي رفض المذلة. ومن ناحية أخلاقية بحتة يصح للإنسان أن يـــدفع بـــالقوة – الأخف بالأخف– العدوان عن نفسه؛ وإنما لمرتبة أخلاقية أعلى أن يقبل المرء ضرراً على المستوى الفردي لكي يـــردّ ضرراً شاملاً على المستوى الجماعي.

وهبْ أنّ تدخلاً مباشراً هو المطلوب في نهاية الأمر. فهل هذا هو الوقت الصحيح؟ أولا يلزم تدبّر أهل الخـــبرة للفصل في هذا الأمر الخطير؟ ولما كانت تبعات التدخل تصيب كل الشعب السوري، أليس المطلوب أن يكون هناك قبول واسع للتدخل؟ والتدخل قبل وجود هيئة سياسية تتكلم باسم الشعب أمر مشكل جداً.

ثم إنه كلما كان هناك إنجاز من الداخل ساهم في تخفيف التبعية التي تلي التدخّل الخارجي. فمثلاً، لو استطاع ثوار ليبيا أن يقوموا بتطهير البلاد واحتاجوا قوات الناتو فقط عند دخول طرابلس لكان أفضل لمستقبل ليبيا. ومـــبرر

التدخّل في سورية كان يمكن أن يقال قبل شهر أو شهرين، وكان قائماً عقب الأحداث الفظيعة في درعا. إذاً، علينا أن نتفكر في النقطة التالية: هل استنفد الحراك السوري الذاتي كل ما في جعبته، وهل استنفدت القوى الدولية كـــل وسائل الضغط والتأثير؟ العصيان المدني الشامل لم يحدث بعد، وما زالت هناك ضغوط سياسية دولية لم تكتمـــل، وهناك ضغوط اقتصادية لم تتراكم بعدُ آثارها.

وأولاً وأخيراً، علينا أن نذكّر أنفسنا أن بدء التدخل الخارجي على نحو مباشر معناه فقـــدان المبـــادرة الذاتيـــة. السلوك الدولي إلى هذه اللحظة يستجيب لضغط الجهاد السلمي في الداخل ولأجندته المتبنّاة. وسينعكس الأمـــر إذا صار هناك تدخل عسكري خارجي، وسيصبح الحراك الداخلي هو التابع.